

محمد كرد علي

من الرواد المؤسسين لمجمع القاهرة

صاحب قلب كبير مليء حبا وقلم جريء لا يحايي صديقا ولا
حبيبا

بقلم

د . عدنان الخطيب

في حيّ من أحياء مدينة دمشق تقطنه أسر كثيرة يتعاطى ابناؤها
التجارة أو تعيش من غلال مزارعها ، احتفل في أواخر شهر صفر من
سنة ١٢٩٣ للهجرة (١٨٧٦ م) بمولد طفل لأم شركسية الأرومة . وكان
جدّ هذه الأسرة تاجرا انحدر إلى دمشق من جبال الأكراد في شمالي
العراق ، فاستلطف هواءها وأحب الطبيعة فيها معجباً بدمائة أهلها
ورحابة صدورهم بالغرباء عنها ، فعزم على البقاء فيها ، واتخاذها موطناً
له ولابنائها من بعده .

ولما بشر والد الغلام بمولده أسماه « فريدا » وحمّد الاسم ، على عادة
أهل دمشق تيمنا باسم النبي (ﷺ) ، واستطالت الأسرة الاسم فاكتفت
منه بمحمد ، وشبّ الغلام وتفق ثم بلغ مبلغ الرجال دون أن يعرفه أحد
إلا باسم « محمد كرد علي » .

(٥٦) أعدّ هذا المقال بمناسبة احتفالات مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعيده الذهبي سنة

. ١٩٨٤

فُطر محمد كرد علي على « الحبّ » فأحبّ ، وكان حبه كبيراً عيماً ، أحبّ المدينة التي ولد فيها ودرج على أرضها ولعب مع أترابه في باحات دورها ، وعشق غوطتها في ربيعها وخريفها وفي صيفها وشتائها ، وكان من ثمرات حبه هذا أن نشر ، بأخرة ، كتابيه « دمشق مدينة السحر والشعر » و « غوطة دمشق » وصف فيها مغاني المدينة التي أحبّ = ومتنزهاتها ، متغنيا بجمال غوطتها على اختلاف مايكسوها به ربيع أو خريف .

وكان حظ محمد كرد علي عظيماً ، وهو في مقتبل العمر ، عندما التحق بالمدارس الحكومية ، إذ تعرّف فيها على كبير معلمي عصره الشيخ طاهر الجزائري ، فتتلذذ عليه ، وعنه أخذ حبّ العلم والعلماء ومنه تشرب حبّ العرب وحبّ لغتهم والاعجاب بفصاحتهم وبيانهم^(١) ، فوقف حياته على نشر العلم مااستطاع وعلى خدمة العربية ماوفق ، وكان كتابه « أمراء البيان » من أجل كتبه وأروعها ، كما كانت كتاباته عن الشيخ طاهر الجزائري أسمى مايكتبه تلميذ عن أستاذ أحبّه أشدّ الحبّ وتأثر به أبلغ تأثر^(٢) .

وأحبّ محمد كرد علي الصحافة يافعاً ، وظلّ حبه يدفعه نحوها حتى غدا الرائد الأول بين المشتغلين فيها في بلاد الشام ، لقد سجل في مذكراته قصة غرامه بالصحافة فقال : « بدأت أقرأ الجرائد العربية في الثالثة عشرة من عمري وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية ، وبعد حين اشتركت بجریدتين .. وأولمت بمطالعة (لسان الحال) لأن فيه أخبارا

(١) انظر اهداءه لكتاب « كنوز الاجداد » من مطبوعات جمع دمشق سنة ١٩٥٠ .

(٢) انظر كتاب « الشيخ طاهر الجزائري » لعبدنان الخطيب القاهرة ١٩٧١



الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

طريفة معربة عن الانكليزية .. واشتركت لما كنت في الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة إفرنسية اسبوعية تصدر بباريز اسمها (صديق الريف) .. فكنت أقرؤها قراءة تدبر لا قراءة تفكه .. واطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الاستانة .. ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية ، وقد أقرأ بعض المقالات التي تروقي أكثر من مرة ، ولا سيما مقالات كبار الكتاب والمفكرين في السياسة والاجتماع . وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخبارا ومقالات في الجرائد .

ثم أردف محمد كرد علي يقول : « ماكنت أظن أن هذه البداية تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة ، ويبلغ بي الحال أن أحرر أول جريدة ظهرت في دمشق^(٣) .

وعندما هبط محمد كرد علي سنة ١٩٠١ مصر لأول مرة دفعه غرامه بالصحافة إلى قبول الاشتراك بتحرير بعض الصحف فيها ، وانتهى به الأمر إلى اصدار مجلة شهرية باسم (المقتبس) تبحث في العلوم والآداب ، واستمر على اصدارها ، إلى أن أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨^(٤) .

وعاد محمد كرد علي إلى دمشق بعد اعلان الدستور ، ليصدر فيها جريدة (المقتبس) اليومية السياسية إلى جانب (المقتبس) المجلة الشهرية الأدبية العلمية^(٥) .

لقد احتل محمد كرد علي مكانة مرموقة في بلاد الشام ، وعرضت

(٣) انظر ص ٥٠ ح ١ من المذكرات دمشق ١٩٤٨

(٤) انظر ص ٦ من المصدر السابق نفسه .

(٥) انظر فهرس مجلة المقتبس من مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٧٨ .

عليه وظائف حكومية عالية ، فرفضها قائلاً : « .. إني لم أرب نفسي لأكون موظفاً ، ولو احببت التوظف لكنت اليوم في أرقى المناصب^(٦) » .

وفي سنة ١٩١٩ كلف محمد كرد علي بتأسيس مجمع علمي يتولى حماية العربية والنهوض بها ، فرحب بهذا التكليف ، وتم انتخابه من قبل الذين اختيروا للعمل معه ، رئيساً للمجمع العلمي العربي أول المجمع العربية ، ولم تلبث وزارة المعارف في الحكومة السورية أن جاءت تجر أذيالها .

وعندما دعيت الحكومة السورية إلى الاشتراك بمهرجان مبايعة أحمد شوقي بأمانة الشعر ، اختارت رئيس المجمع ليثلها ، وفي المهرجان ألقى محمد كرد علي كلمة سورية ، وسجل بعدئذ في مذكراته يقول :

« ودعاني شوقي ، وأظن بإشارة من القصر ، إلى زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالتة مقابلة عطف عظيم وطلب إليّ أن أعود إلى سكني مصر ليوسد إليّ عملاً علمياً في قصره العالي وزادت رغبته لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال : إنك بمساهمتك بخدمة السيادة والأدب في مصر تعد مصرياً^(٧) » .

واعتذر محمد كرد علي من المليك عن رفضه قائلاً في مذكراته : « وكنت علم الله ، أود امتثال أمره الكريم في سكني مصر لولا أن هواءها لا يلائمني كما يلائمني هواء دمشق مسقط رأسي ، وفي أرضها دفن أبي وجدي^(٨) » ثم علق على رفضه عرض الملك بقوله : « أبيت سكني مصر

(٦) انظر ص ٢٧٧ ج ١ من المذكرات .

(٧) انظر ص ٢٩٨ من المصدر السابق ذكره .

(٨) انظر ص ٢٩٩ من المصدر نفسه .

مع أني أجد بين ظهرائي أخواني فيها من السلوى مالا يتيسر لي أن أنعم
بمثله في بلدي ، وتفتنني مغريات الحضارة على مالا أجد له شبيها في
الشام ، وعليّ يصدق بعض الشيء قول أبي تمام :

بالشام أهلي وبفداد الهوى وأنا

بالرقتين وبالفسطاط اخواني^(٩) «

وكان من تأثير الشيخ طاهر الجزائري في تلميذه محمد كرد علي تلبسه
النهج الذي رسمه الأستاذ للخلص من تلامذته بسلوكه وأفعاله ، وكانت
معالم هذا النهج واضحة محددة ، ردها كرد علي كثيرا في بعض كتبه ،
أشار إلى واحد منها بقوله : « كان أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري ، وهو
على سرير الموت ، يقول لمن حوله من أصحابه : اذكروا من عندهم من
الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد ، ودونوا اسماءهم في جريدة لثلا
تسوم ، ونوهوا بهم عند كل سانحة ، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز
عزيز .. تجاوزوا عن سيئاتهم وانتفعوا بحسناتهم^(١٠) » .

كان محمد كرد علي يردد أقوال شيخه هذه على مسامعنا كثيرا لنعيها
ونعمل بها ، كان لا يترك مناسبة إلا ويذكرنا بالعلماء العاملين الذين
عرفهم ، وفي مذكراته سجل ما يلي :

« بدأت مصر باقامة تماثيل للسياسيين الوطنيين ، وهي بعيدة اليوم
عن اقامة تماثيل للعلماء العاملين ، ولو كانوا من عيار أحمد تيمور باشا
قضا حياتهم كلها في عمل الخير ونشر العلم ومافكروا فيما سوى ذلك^(١١) »
ثم سجل ماكتبه إلى لجنة الاحتفال بذكرى أحمد تيمور وجاء فيه :

(٩) انظر ص ٣٠٠ من المصدر المذكور .

(١٠) انظر ص ٢٧٤ ج ١ من المذكرات .

(١١) انظر ص ٤٥ من المصدر نفسه .

« .. وغاية ما أرجو أن ينجلي اجتماع يوم الذكرى عن تحقيق أمنية من عرفوا جهاد تيمور العظيم في خدمة الأدب ، وذلك بطبع كل ما خطته يمينه من كتب ورسائل ومقالات وتعليقات . وإذا صحت النية على البرّ بعلم الأعلام فخير ما يكون منه تعليم المصريين أن يقام له تمثال ينصب أمام مجمع فؤاد الأول للغة العربية عنواناً على الاعتراف ببيض أيادي ابن مصر البار على هذه اللغة وعلى تاريخ الاسلام .

وخير الأمثلة على تأثر محمد كرد علي بنهج الشيخ طاهر الجزائري في التنويه بفضل الرجال ، ما أورده في مذكراته عن عرف له فضلا ، وكان من ذلك قوله : « أعجبت بثلاثة من رصفائي أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة .. أعجبت بثباتهم على الحضور .. أما الثالث فهو - الأستاذ عبد العزيز فهمي باشا - أكثرهم عناية بعمل المجمع ، يدرس المسائل المعروضة عليه درس تدبر قبل ميعاد المناقشة فيها ويبحث فيها بحث البصير ، وان لم تكن داخلة في اختصاصه ، يعمل هذا حبا بالعلم وتفانيا في أداء الواجب .. وعلى شيخوخته وهو في عشر الثمانين ، لا يتخلف عن شهود جلسات المجمع وجلسات المؤتمر السنوية . وهناك أعضاء لا يحضرون إلا نادرا ، ومنهم من لا يحضر أبدا .. وفي أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق مثال من أعضاء مجمع القاهرة ، ومن أعضائه من يطرد دوامه ويعمل بذمة ونشاط ، ومنهم أعضاء لا يحضرون ولا مرة في السنة^(١٢) » .

لقد رزئ مجمع دمشق سنة ١٩٥٣ بوفاة مؤسسه ورئيسه محمد كرد علي وكانت الخسارة بموته فادحة لا تعوض ، فلما كانت سنة ١٩٧٦ احتفل المجمع واحتفلت سورية من ورائه بالذكرى المئوية الأولى لميلاد محمد كرد علي ، احتفالا منقطع النظير اشتركت فيه سائر الأقطار العربية بمجامعها

(١٢) انظر ص ٥٦٩ ج ٢ من المذكرات دمشق ١٩٤٨ .

اللغوية ، دلّ على المكانة السامية التي كان يحتلها محمد كرد علي في العالم العربي بأسره .

وكانت من عيون الكلمات التي أُلقيت في الاحتفال المذكور ، كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيس اتحاد الجامعات العربية والتي استهلها بقوله^(١٣) :

« كرد علي علم من أعلام النهضة السورية الفكرية والأدبية المعاصرة ، ورائد من كبار روادها والمجتمعات البشرية بين سير ووقوف ، بين يقظة ونوم ، وما أحوجها في فترات وقوفها إلى من يبعث فيها الحياة والحركة ، وفي أزمان نومها إلى من يوقظها وينشطها . وتجود الأيام في أمثال هذه الظروف بدعاة النهوض والتقدم ورسد الإصلاح والتجديد ، وكأنما خلقوا لهذا وأعدوا له .

ولاشك في أن كرد علي واحد من هؤلاء الدعاة المصلحين ... »
واستطرد يقول :

« وكان مؤمنا بالعروبة ايمانا جازما ، يعتد بأمجادها ، ويباهي بأثارها الحضارية والإنسانية . ومن آيات عروبه أنه كان يتعصب للأمويين ويدافع عنهم ولعل هذا كان مظهرا من مظاهر وطنيته وتعلقه بالشام ودمشق عاصمة ملكهم وكثيرا ما حمل على الشعبوية والشعوبيين . ومع هذا لم يكن جامدا ولا متزمتا ، بل كان يدعو إلى التجديد في غير ماتطرف ، وإلى الأخذ عن الحضارة الغربية في غير ما عدوان على القيم والمبادئ الإسلامية ، وكان يحرص الحرص كله على الملاءمة بين القديم والحديث » ولم يكن غريبا أن يختار أول رئيس لمجمع دمشق الذي ناضل

(١٣) انظر ص ١٤ من كتاب ذكرى الاحتفال دمشق ١٩٧٧ .

طويلا في سبيل دعمه وعمل جاهدا في نشر آثاره . وكان على صلة بالملك فؤاد الأول الذي تبني فكرة انشاء مجمع لغوي رسمي يحقق ماهدفت إليه المجامع الأهلية التي أشرنا إليها ، وفي لقاء بينها عام ١٩٢٦ شاء الملك أن يفيد من تجربة دمشق السابقة ، فقدم له كرد علي صورة صادقة ويمكن أن يعد بهذا ممن مهدوا لمجمع القاهرة » .

ثم علق على اختياره مع الرواد المؤسسين قائلا :

« .. فكرد علي من المؤسسين الأوائل لمجمع القاهرة ، ومرحلة التأسيس من المراحل الدقيقة في حياة أي مشروع أو عمل : فيها توضع اللبنة الأولى ، وترسم الخطة ، ويحدد المنهج . »

« .. وقضى كرد علي في مجمع القاهرة نحو عشرين سنة ، زاملته في سبع منها ، وكان حريصا الحرص كله على أن يشترك في أدوار انعقاده المتعاقبة ولم يتخلف عنها إلا لضرورة قاهرة . وكانت أطول مما تحظى به اليوم ... »

وختم الدكتور مذكور خطابه بقوله :

« لقد قصرت حديثي في هذه الذكرى الكريمة ، على جانب واحد من جوانب كرد علي ، وما أكثرها ، ولا أزعم أنني وفيت هذا الجانب حقه . وكل ماقصدت هو أن أشير إلى صلة وثيقة وقديمة بين مجمع دمشق ومجمع القاهرة ، عرف لها وزنها منذ البداية ، ولا تزال نعول عليها التعويل كله .. »

رحم الله كرد علي واخوانه الرواد المؤسسين وعضو العربية خيرا .